قراءات في نماذج القصة السورية النسائية

الادلبي - خوري - بريك

وليد اخلاصي

في الادب النسوي كما في أدب الرجال ، قامت القصة السورية بالدخول في عالم الحياة الاجتماعية بجرأة تحولت بعد ذلك الى خبرة . واذا كنا نجد في نماذج الكاتبات علامات تدل على الذاتية والانطلاق احيانا في عوالم الفردية بجرأة العاطفة فان مثل هذه النماذج نجدها عند الكتاب انفسهم . ولم تنفصل في اي حال هموم الفرد عن الهموم الاجتماعية التي تشعبت فباتت سمة اساسية من سمات فن القصة السورية الحديثة .

اسماء عديدة ساهمت في بناء الصرح القصصي السوري ، ومنذ الاربعينيات وحتى يومنا هذا ، دخلت عالم القصة اسماء وخرجت اسماء ، الا ان هذه القراءات ستتناول نماذج من أعمال القاصات العشر التالية اسماؤهم :

وداد سكاكيني ـ الفة الادلبي ـ سلمى الحفار الكزبري ـ كوليت خوري ـ قمر كيلاني ـ غادة السمان ـ نادية خوست ـ ملاحة الخاني ـ ضياء قصبجي ـ سميرة بريك . وسيكون منهج الدراسة بعيدا عن التقويم النقدي ، قريبا من القاء الضوء على ابرز أعمال الكاتبات، مما يشكل في نهاية المطاف صورة للحياة الفردية والجماعية . ان عملا كهذا قد يؤدي الى اعادة القراءة في النموذج المختار ، الا انه في غايته قد يؤدي الى استطلاع الحياة الفكرية والاجتماعية السائدة في عصرنا هذا .

الفة الادلبي في قصة « المنوليا في دمشق »

يبدو ان الكاتبة السيدة الفة الادلبي تحاول ان تتكيء على الادب لتحقيق افكار ومثل اجتماعية وخلقية ووطنية آمنت بها او انها نبعت من حياتها الخاصة او العامة . الفة الادلبي ، لا يعنيها خلق وحدة فنية او اضافة تكنيكية من خلال القصص التي تكتبها ، بقدر ما تهدف الى الامساك بالقضية التي تسعى الى تصويرها بواقعية يلمسها القارىء او صاحب الاختصاص على حد سواء . ورغم كل ذلك ، فقد استطاعت أن تحقق في كتاباتها تماسكا فنيا بدا واضحا في معظم قصصها وحكاياها التي صنعتها خلال فترة تزيد عن الثلاثين عاما ، شأنها في ذلك شأن الراوية يجتمع من حولها الاخرون فتقرر آنذاك ان تمتعهم بحكاية تصل الى هدف تعليمي او تنبش حقيقة تاريخية او اجتماعية تسعى الى التواصل مع الحاضر . وفي معظم أعمال الكاتبة الفة الادلبي سنجد تمسكا بالبيئة المحلية أو بالرؤية المحلية للاحداث والشخصيات التي تختارها الكاتبة لاعمالها الادبية والتي طالما تأرجحت ما بين القصة والحكاية والرواية (بمعنى كان ما كان ..).

في « المنوليا في دمشق » التي لم تشر الكاتبة الى جنسها الادبي ، سنجد ان هذا العمل هو اقرب ما يكون الى القصة ـ الحكاية ، ولولا ان الاحداث المروية قد جاءت على لسان الكاتبة كحدث واقعي ، لكانت اقرب ما تكون الى شروع في كتابة عمل روائي طويل، فهي تحمل من زخم الاحداث وازدحام الوقائع ما يؤهلها لان تصبح سجلا فنيا حافلا .

« المنوليا في دمشق » من كتاب (المنوليا في دمشق واحاديث اخرى ، مطابع ابن زيدون ، دمشق ، ١٩٦٤، الصفحة ٩ ـ ٤٣) هي قصة امرأة وسجل لرحلة وتأريخ لحب عجيب ،وهي قبل كل ذلك حكاية مشوقة تثير في النفس مشاعر فياضة لها علاقة بالحنين الى تاريخ انسان يستحق بطولة عمل فني ، وسنجد ان الفة الادلبي منذ البداية تعمد الى لعبتين فنيتين ماهرتين تضعان هذه القصة ـ الحكاية في اطار مقنع :

اولا ـ الحياد في السرد ، مما يشكل القناعة لدى القارىء بان ما يجري من احداث هو الحقيقة الكاملة التي لم تتدخل الكاتبة في اختراعها او تعديها . تبتديء القصة بـ (سيداتي سادتي : لا شك ان هذا العنوان قد اتاكم غريبا بعض الشيء) ثم يبرق التشويق فتقول (ولكن

الاغرب منه كما سترون هو ان علاقته ضئيلة جدا بالقصة التي سارويها لكم الان) . ثم يأخذ الحياد شكل التوثيق في قولها (يتناول حديثي اليوم سيرة امرأة من الغرب، عاشت في بلادنا واحبتها ، وانسجمت مع عاداتنا وتقاليدنا ومارستها جميعا ، وكان ذلك منذ زمن ليس بالبعيد جدا) .

ثانيا ـ التركيب المنطقي ، مما يجعل علاقة الكاتبة بالحكاية امرا مقبولا بل ويستحق البحث والتنويه به (كنت في فجر صباي مولعة بزهرة المنوليا ، وكانت هذه الزهرة نادرة الوجود في مدينة دمشق . وكنت اتلقى في كل موسم من مواسم تفتحها بضع زهرات يانعات تهديها الي نسيبة لي ، في حديقة دارها شجرة منوليا ضخمة عتيدة ، وعندما تستبطىء الرواية تلك الزهرات ذات موسم تقترح على اهلها ان يقوموا بزيارة لنسيبتها ، فتكون الزيارة الى الدار التي ستكون مسرحا رئيسا لاحداث القصة (كانت الدار التي قصدناها في حي مسجد الاقصاب دارا قديمة قد اتى الخراب على بعض جوانبها ، وبالرغم عن ذلك ما تزال محتفظة بشيء من عزها القديم) . وتسأل الراوية نسيبتها (عن الدار ومن بناها ؟ وعن شجرة المنوليا ومن غرسها في هذه الحديقة ؟ وعن القاعة الرائعة المثمنة الاضلاع ومن احكم هندستها ؟) فتكون الاجابة التي ستصبح مفتاحا للدخول في صلب الاحداث (جدها كان قد اشترى هذه الدار من ورثة امرأة اجنبية تلقب بالسنيورة) .

اذن ، فنحن أمام سيرة شبه شخصية لامرأة (رائعة الجمال ، عميقة الثقافة ، ذات شخصية قوية جذابة ، كما كانت مغامرة فذة) ، المرأة او السنيورة هي : جين دكبي . فمن هي هذه السيدة العجائبية التي يندر ان نرى مثلها في حياتنا الحاضرة ؟

انها قصة امرأة اخذت اسماء عديدة ، وسنجد انها ايضا تحمل اكثر من شخصية واحدة : فمن هي جين دكبي ؟

هي اولا (الليدي النبرة) زوجة وزير العدل في العهد الفيكتوري (والذي اصبح فيما بعد ، حاكم الهند) . وهي كذلك (البارونة فينجين) زوجة البافاري الجميل البارون فينجين . وهي بعد ذلك (الكونتيسة نيوتوكي) زوجة الامير اليوناني الكونت نيوتوكي . وهي خليلة الملك لودفيك الاول ملك بافاريا . وهي صاحبة ندوة ادبية شهيرة في باريز ، ومن اصدقائها ورواد ندوتها شخصيات لامعة كفكتور هوجو والفرد دوموسه وجورج صاند وشوبان وغوتيه واخيرا بلزاك (اكثر من صداقة واعجاب) ، وهي كذلك في نهاية المطاف (حرمة الشيخ عبدالمتجول المسراب) . فمن هو ذلك الشيخ الذي تفوق على الملوك والامراء والوزراء في اكتساب قلب امرأة نادرة كجين دكبي التي تملك قلبها الى الابد ؟ . انه كما تصفه الكاتبة (الرجل الوحيد الذي احبته حبا امينا صادقا من بين كل من عرفتهم من الرجال ، واخلصت له الاخلاص كله مدة ثلاثين عاما) .

جين دكبي الغربية تقترن بعبد المتجول المسراب الشرقي ، فهل هدفت الكاتبة الى تصوير العلاقات القائمة بين حضارتين متباينتين ؟ ان مجريات الحكاية تشير الى لقاء حقيقي بين حضارتين (فقد استطاع ذلك الرجل العربي الاصيل ، البدوي الصحراوي ان يروض تلك المرأة الشموس ، ويجعل منها زوجة مطيعة وفية كأحسن ما تكون الزوجة الشرقية في ذلك العصر طاعة واستكانة) . فهل تعتبر هذه الحكاية انموذجا عن لقاء الحضارات وتفاعلها وانتصار نقاء واحدة على تعقيدات الاخرى ، ام انها انموذج فردي لا يمثل سوى نفسه ؟ ان الكاتبة توضح هذه النقطة بما يلي (ونشأت جين في عصر بدأ فيه الانكليز يخرجون عن عزلتهم ، ويتطلعون الى خارج جزيرتهم ، لا سيما الى الشرق ، فكان الحديث عن المشرق ، وعن جوه الصافي ، ومآذنه السامقة ـ .. لا سيما بعد ان ظهرت اشعار بايرون ولامارتين عن الشرق وغزت كل بيت مثقف في انكلترا . كما ظهرت ايضا لوحات دولاكروا عن الشرق ، واحتلت مكانتها اللائقة بها ، واصبحت شخصية الامير عبدالقادر الجزائري الجذابة ، بلحيته السوداء الداكنة ، والبسته الشرقية المهيبة ، وبطولته الرائعة ، حديث الصالونات الراقية في اوروبا ، تعطي نموذجا رومانطيقيا عن رجال الشرق) . فهل وقعت بطلة هذه القصة في دوامة ذلك الاعجاب الغربي بالشرق ام انها استجابت الى توق روحها المعذبة والمتقلبة الى حياة جديدة فيها من البراءة قدر ما فيها من حب عظيم واسع كالصحراء ؟. هذا ما توضحه القصة في سياق الحدث التاريخي (تبدأ حياة جين دكبي في نورفوك في انكلترا ، وتنتهي في حي مسجد الاقصاب في دمشق ، وكانت تنتمي الى اسرة اشتهر افرادها بحب المغامرات) ، وكانت جين تقول (ان روح قريبها الشاعر قد تقمصت بها ، واورثتها حب البلاد السورية).

اية رحلة طويلة، شائقة ، شائكة قامت بها هذه المراة ! فمن عائلة بحرية الى عائلة صحراوية ، تلك كانت البداية والنهاية . خمسة واربعون عاما استغرقت الرحلة من لحظة المجيء الى الحياة وحتى لحظة التعلق برجل الصحراء ، ويبدو ان بلزاك استوحى من شخصيتها قصة « زهرة الوادي » فكانت انابيلا هي جين دكبي (وكأن بلزاك ببصيرته النفاذة استطاع ان ينفذ الى صميم هذه المراة الغريبة فيصورها على حقيقتها . وقد تنبأ لها بمصير تحقق بعد عشرين سنة . كان يلقبها بعصفورة الصحراء ـ ... وكثيرا ما كان يقول لها : كأنك يا صديقتي تنتمين الى الشرق) .

مؤامرات القصور ، وحقد النساء على جين دكبي، والحيـاة المعقدة المغلفة بالكذب . كلهـا دفعت المرأة الـى الهرب ، أو انهـا ردتهـا الى الاصل (وحزمت امتعتهـا وجاءت الى سورية) و(كانت جين اذاك في اوج نضجها ذات ثقافـة عميقة جدا ـ ... كان البريـد يحمل اليها اخر النتاج الفكري ، والادبي ، والفني الـذي يصدر عن اوروبا جميعها ، فتنكب على مطالعته بنهم عجيب ، وتتابع تطوره ، وتتفهم وقائعه . وكانت تجيـد ثماني لغات قراءة وكتابة اضافت اليهـا فيمـا بعد اللغـة العربية) . وكانت تعزف على البيانو وهوايتها المفضلة النحت (وتعتبر جين أول من نقب عن الآثار اليونانية تنقيبا فنيا علميا ، قبل ان يكتشفهـا عالم الماني) و (عندمـا وصلت هذه المـرأة الغريبة الاطوار الى سورية كانت في حالة من اليأس لم يسبق لها ان عانتها من قبل . وراحت تعترف لنفسها بان الحياة التي عاشتها كانت حياة فاشلـة على الرغم مـن بهرجتها وكثرة احداثها) و (تسوق لها المصادفة ـ عبد المتجول المسراب ـ الذي ارتبط مصيره بمصيرها فبمـا بعد ثلاثين عاما كاملة) .

اصبح الان عبدالمتجول المسراب دليلا لجين دكبي، فمن هو هذا الرجل الذي سحر لب المرأةالتي عرفت اشهر الرجال وأحبها رجال كانوا في اسمى مراكز القوةوالجاه؟ يقول الامير عبدالقادر الجزائري (ان انقى لغـة عربيـة سمعتهـا في حياتي ، كانت لغـة عبدالمتجول المسراب) ، وتكتب عنه زوجة القنصل الانكليزي في سورية (كـان عبدالمتجول ذا شخصيـة قويـة جذابة ، كما كان يفرض احترامه على كل مجتمع مهما كان لونه ، وقد اعجب بـه جميع الاجانب الذيـن تعرفوا عليه ووجدوا عذرا لزوجته جيـن على حبه وتقديره) . وعبدالمتجول (هو الولـد الثاني من تسعـة اولاد لشيخ قبيلة المسراب التي هـي فرع من قبيلة العنزة التي كانت تخيم دائمـا حول تدمر) وقد اعده والده ليكون دليـلا للسياح وعلمـاء الآثـار (ويرسل شيخ المساربة ابنه عبد المتجول ليقيم في المدن ويدرس اللغـة الفرنسية ، والتركيـة ، وتاريخ سوريـة مفصلا وبخاصة تاريخ الآثار) وكان (جميل الطلعة، ذكـي الفؤاد ، سريع البديهة ، حاضر النكتة ، يتصف بكل مـا يتصف بـه العربـي من كـرم ، ونبـل ، وشجاعة ، وفصاحـة) .

أهو الخلاص لروحها المعذبة وجدته فـي شخص المسراب ، ام انه مجرد لقـاء طبيعي بين رجـل وامرأة ؟ المرأة وجدت في الرجل مثلها الاعلى ، فارتمت عند اقدام تاريخه وسلوكه وجغرافيته التـي يحياهـا في الصحراء (فتشعـر جيـن انهـا تعيش في اسطورة ، او انهـا في غيـر الدنيـا التي الفتها ، وكـم تتمنى ان تظل في هذا الجو الساحـر مدى عمرها . انهـا الآن في صميـم الشرق حقا) . ويهاجم ركب جين في البداية بعض القبائل البدوية ، فيدافع عبدالمتجول عن المرأة ببطولـة خارقة منتصرا على الغزاة رغم قلة عدد رجاله (وشعرت ان هذا العربي الاسمر يجب أن يكون لها الملاذ الاخير . لا شك انـه نمط فريـد بيـن الرجال الذين عرفتهم ، وفيـه وجدت جميع الصفات التي ترغبها في الرجل، والتي كانت تتحرى عنهـا ، ودائمـا كانت تبوء بالفشل) . اما هـو فقـد عرف فيها امرأة لـم يعرف لها مثيـلا من قبـل (عجبا لهذه المرأة الفريدة ! مرة تذوب رقة وحنانا ،ومرة تبـز الرجال جرأة واقداما ، فارسة لا يشق لهـا غبار ـ ... ما أروعها زوجة لبدوي يسكن الصحراء) .

كتبت جين في مذكراتهـا اذ يختلس منها القبلـة الاولـى (لولا مرآتي ، ولولا ذاكرتـي لحسبتني في الخامسة عشرة من عمري) . وتشترط عليـه ان يطلق زوجتيه فيرضى عبدالمتجول على ان تقوم جين بكل مـا تقوم به البدوية نحو زوجها من خدمة وطاعة . ويفي كل بعهده . ويبدأ حبهما العظيم الذي ملك من السرية قدر ما ملـك من الوضوح . شـأن الصحـراء نفسها . ويخلق الحب من جين امرأة جديدة (تحلب النوق . وتوقد النار. وتكنس بيت الشعر ، وتغسل رجلـي سيدها العربي . وتزيد على نساء البدو بان تتمنطق سلاحها ، وتركـب جوادها وتخرج مع رجال القبيلة لغزو القبائل المجاورة ـ ... وأحبها أفراد القبيلة حبا صادقا . وأطلقوا عليهـا لقب ـ ام اللبن ـ لان بشرتهـا كانت ناصعـة البياض كاللبن تمامـا) .

حب استمر حتى ايام الشيخوخة (وبعـد مضي خمس عشرة سنة على مقامها في الصحراء استطاعت ان تقنع زوجها عبدالمتجول ليسمح لهـا ببناء دار في دمشق) وتكون هي الدار التي حدثتنا عنها الراويـة فـي مطلـع الحكاية . وباتت الدار مـن اشهـر البيوت في دمشق (وعندمـا نشبت الفتنة بين المسلمين والمسيحيين عام ١٨٦٠ جاءت قبيلة المسراب وعسكرت في حي مسجـد الاقصاب حول دار جين لتحمي ام اللبـن من كل سوء . وكانت دارهـا ، ودار الامير عبدالقادر الجزائري ملاذ الخائفيـن .) .

وكانت العلاقة بين الزوجين مثلا يـدل علـى نضج نفسي واجتماعي ، فمثلا كانت جين في ذلك العصر تكثر من زيارة الكنائس ورجال الدين ، اما عبدالمتجول فكـان يقول (وما لـي انا . ان شريعتنـا الاسلاميـة تبيـح للزوجـة حق ممارسة شعائرها الدينية كما يحلو لها) . واذ تعطي جين من مالهـا للكنائس والاديـرة والفقراء والمساكين ، يقول عبدالمتجول (مالي انا وشؤونك الخاصة. انت حرة بما تملكين ، ولك الحق أن تصرفيه على أي وجه شئت ، ان شريعتنـا الاسلاميـة تبيـح للمـرأة حـق التصرف بمالها كما تشاء وتحب) . واذ يداهم الفقر قبيلة

السراب (حتى اضطر بعض رجالها ان يبيعوا سلاحهم ليشتروا بثمنه مؤونة الشتاء) يأبى عبد المتجول أن تقوم زوجته جين بالمساعدة (وبعد جهد رضي عبدالمتجول ان تشتري زوجه السلاح فقط وتهديه الى الذين باعوا سلاحهم) . وكانت جين ابدا تقوم بالمقارنة بين نبل البدوي (وبين خساسة ازواجها السابقين الذين كانوا لا يتورعون ابدا عن الاستيلاء على اموالها) .

وتأتي النهاية .. في العام ١٨٨١ ينتشر وباء الكوليرا في دمشق فيأبى عبدالمتجول الفرار (واضطرت جين ان تبقى الى جانبه فاصيبت بالوباء الفتاك وتوفيت عن اربع وسبعين سنة ، ودفنت في المقبرة البروتستانتية في دمشق) . ويقف عبدالمتجول مع حصان زوجته المفضل (ينتظران عند القبر ليودعا الراحلة العزيزة). وتطوى صفحة حب عظيم ، وتودع الكاتبة بطلتها (كانت ناصعة البياض كهذه الزهرة تماما ، عنيفة في عواطفها وتصرفاتها كعنف هذه الزهرة في اريجها ، انسجمت مع جوّنا كما انسجمت معه زهرة المنوليا التي غرستها بيدها في أرض دمشق) .

ان الحدث التاريخي الذي اصبح وثيقة فنية بين يدي الفة الادلبي ، تأرجح ما بين الفنية الخالصة والتوثيق ، فحقق للامانة التاريخية اكثر مما حقق لفن القصة القصيرة ، لكنه حافظ على التشويق الذي ما زالت القصة بحاجة اليه اليوم اكثر من اي وقت مضى .

كوليت خوري في قصة « لؤلؤة »

حديث كوليت خوري عن لؤلؤة ما ، لا يختلف في كثير من الاحوال عن حديثها عن دمعة في عين محب او شهقة في قلب عاشق . وكوليت خوري شاعرة تستخدم النثر في اعمالها القصصية والروائية ، من اجل تعميق رؤية الشعر الوجدانية التي ترتبط وجوديا بحياتها الشخصية واعمالها الادبية . وهذه الرؤية الشعرية الرومانسية تعطي الكاتبة بعدا خاصا بها تعيش من خلاله بين قطبي الانوثة والابداع . الانوثة عند كوليت هي الحياة ، والابداع هو ما يمكن للانثى ان تعطيه من معنى للحياة ، من وجهة نظرها على اقل تقدير .

كوليت خوري تعيش اولا ، ثم تكتب . انها انسانة ذات ابعاد وجدانية واضحة وعميقة وتمارس الكتابة ضمن طقوس حياتها. انها باختصار تريد أن تعرف الحياة وتمارسها بنهم المحب للحياة ، ثم لتخرج من كل حدث تمر به او يمر بها بعمل ادبي يكرس حياتها من جديد، وتلك هي دائرة كوليت خوري باختصار .

وكوليت خوري كاتبة مدينة ، واذا ما توخينا الدقة لقلنا بانها كاتبة موقع ما في المدينة ؛ هو البيت احيانا، او المكان الذي يجمع الحبيب بالحبيب احيانا ، او البقعة التي قد يعلن فيها عن نهاية حب ما . انها اكثر الرومانسيين من الكتاب مرونة في الاستجابة لحركة العواطف . وانها ايضا تحس بمتعة الاستشهاد في عالم متحول متغير يملك من عنصر المفاجأة اكثر مما يملك من عوامل الثبات . وهي كذلك صامدة في وجه التحولات لانها تملك الامل ولو كان خرافيا ، وتلك ميزة تحسد عليها كانسانة اولا وككاتبة فنانة ايضا .

في قصتها (لؤلؤة) المنشورة في العدد الخاص المكرس للقصة السورية القصيرة (مجلة الموقف الادبي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٧٧ ، العدد ٧٣ ـ ٧٥ ، الصفحة ٩٢ ـ ١٠٠) ، تذكي الكاتبة حماسة القارىء منذ السطور الاولى ، فهي ترمي بشباك الحدث من خلال دقات أجراس الكنيسة (اليوم عرس سامي . فقد اعتذرت عن حضور العرس) ، وكان سامي قد جاءها متلعثما كعادته يقول لها (اخترت هذه الفتاة .. لانها .. لانها تحبك . اعني تحفظ اشعارك) .

ومن خلال السطور القليلة الاولى التي تشكل مدخل القصة ، يتضح لنا ان شيئا ما كان قد حدث بين راوية القصة والرجل الذي يدعى سامي ، وان تلك العلاقة لها جذورها. وستتضح بوادر تلك الجذور عندما (تمنت او تحضر عرس سامي . هي عادة لا تحب حفلات الاعراس . لكن فرح سامي يعني لها أمرا هاما ، وهو ان العالم ما زال في خير وكانت تحسب العالم قد خرب)، وسرعان ما يأتي تفسيرها الخاص لسبب الاحساس بالخراب فتقول معلقة (قبل شهر كانت تتساءل كيف مات الانسان في مدينتها ، ولماذا غدت هذه البقعة من الارض بؤرة حقد ودس ورشوة ، بل كيف غدا الناس ارخص بضاعة تجارية بل البضاعة الوحيدة الرائجة في بلاد تتقهقر فيها التجارة) والكاتبة هنا تتحسر على تقهقر التجارة في الوقت الذي تتحدث فيه بعد قليل عن سامي بلهجة اخرى (قصة سامي معها احلى من اية قصيدة تكتبها . لكنها قصيدة لا تكتب . فاللقطات الانسانية تفيض بها العين فقط) .

والاحداث بعد ذلك تبرز لنا من خلال حدثين هامين، الاول كان قد تم منذ شهر ، والاخر يأتي من اعماق الذكريات القديمة . في البداية (تذكر تماما يوم جاء اليها منذ شهر . كانت جدتها العجوز قد اخبرتها ان شابا جاء عدة مرات يسأل عنها وانه يدعى سامي. ولم تكترث للامر) ، وبطلة القصة تعزو عدم اكتراثها للامر بعامة الى التغييرات السياسية والى انها (كانت تحس بان مقابلة اي واحد من الذين يسألون عنها سيعمق شعورها بالغربة . فقد كان الفضول البارد يدفع الوافدين الى التعرف بابنة المدينة التي قطفت من السماء

الصافية نجوما لتزرعها اشعارا في كل حي وكل منعطف) . فهل كان سامي من اهل الفضول اولئك ؟ انه يعني انه من اصدقاء الطفولة ، فيشتمل الحنين عند البطلة الى الطفولة (حيث لا تتذكر منها سوى صور غبشة تركض وراء غيوم الاحداث . فمن هو هذا الوجه الذي يطل من وراء الغيوم حاملا معه نفحات الماضي).

آه من الماضي ، انه وقود الحياة عند البطلة ، وتستثار الذاكرة من خلال ملاحظات صميمة (يتلعثم في النطق ؟ ايام الطفولة ؟ وتابعت لنفسها بصوت مرتفع : واسمه سامي ؟) ، ويتسلسل شريط الذكريات الى الوراء . في النادي الرياضي كانت الصورة واضحة ، فالفتيات الصغيرات يلعبن كرة السلة ، وسامي (الصبي المسكين الذي كان ينزوي دائما) وسامي (صاحب الوجه البشنع والعينين الفائرتين والابتسامة المشدودة). وها هي الذكريات تقود الان الى الحنين . وتستقبله ، رن الجرس (ولكنها فكرت في ان الطارق سامي .وسامي ليس غريبا . فهي تعرفه منذ كانا طفلين) . لقد بدلت الايام الناس وكانوا هم الماضي نفسه ، وتفتح الباب لتصاب بالدهشة (وجدت نفسها امام شاب يرتدي بدلة انيقة كحلية اللون والابتسامة تورق على قسمات وجهه)، وهي تعرفه من خلال تلعثمه في الكلام لانها تميز الماضي بكل تفاصيله . لقد مرت على لقاءات الطفولة ثلاث عشرة سنة ، وتغير سامي وتغيرت هي ، لكن الماضي ما زال يعيش .

انها لا تشارك في الاعراس عادة لموقف اجتماعي كانت قد اتخذته من قبل ، لكنها في حالة سامي تمنت لو فعلت اكراما للماضي ولسامي (ذلك الطفل الفقير الذي عاد اليها بعد ثلاثة عشر عاما ليبرهن لها ان العالم ما زال في خير) . لقد خرج سامي من عالم الطفولة ليدخل في عالم النجاح (غدوت املك بيتا جميلا في بيروت .. وفي السعودية انا املك دكانا يعجبك) واذ تتساءل هي (دكان مجوهرات ؟) يجيب مصدقا على انه يعمل في تجارة اللؤلؤ والذهب .

انه لم ينسها ابدا رغم التباعد (تابعت اخبارك .. في الماضي كنت اقرأ كل ما تكتبين .. وما يكتب عنك.. ثم منذ سنوات .. اعني منذ التغييرات السياسية .. لم تكتبي .. اعني .. لم ينشروا لك) ، ويعترف لها ايضا بأنه طالما راقبها من بعد كلما زار دمشق (فأتأملك وأنا متوار عن أنظارك) لماذا ؟ لانه يريد ان ينجح فيعمله ليكون لائقا بعد ان حمل خجل الفقر سنين طويلة (اهلي كانوا فقراء ..كما تعرفين .. وقرروا انيخرجوني من المدرسة . قالوا انني لا اصلح للدراسة .. وانني غبي) ويتابع تصوير ايام البؤس (وضعوني امام حلين ... اما أن اعملوأساعدهم... واما أن أترك البيت... في ذلك الزمن ... اعني ذلك الوقت ... شعرت بنفسي وحيدا في الدنيا ... ليس لي احد ... وجئت انت ... هل تذكرين ... وحدك ساعدتني) . وتفاجأ هي . وتجهد في نبش الماضي فتتذكر (سأحاول ان آتيك بالمبلغ .. فلا تخبر احدا .. وسأساعدك في دراسة اللغة الاجنبية . اذهب وسجل نفسك في المدرسة) .

وها هي الايام تمضي، والبطلة الوحيدة فيمدينتها تراقب ، وها هو سامي يقول لها (لولاك لما توصلت الى ما انا عليه اليوم .. انت لم تغيبي عني لحظة واحدة طوال هذه السنوات) وهو يعترف لها بانه اراد ان ينجح من اجلها هي ، ثم يلملم شتات شجاعته الضائعة ويهتف (يجب أن تعلمي ان كل ما أملك تحت تصرفك) .

ها هو الماضي اذن ، اكرم من الحاضر ، لانها تعيش في مدينة (رفضت ان تجد لها عملا تعيش منه . رفضت ان تنشر لها قصيدة على صفحات جرائدها) . وها هي تقابل بالماضي من خلال سامي فيضعها امام تصرف منه جعل الدمع يغلي في عينيها (وامتدت اليها يده المرتجفة بعلبة صغيرة فيها خاتم تضحك وسطه لؤلؤة كبيرة) ويضيف بقوله (صنعته بنفسي .. سكبت فيه كل فني ومهارتي .. و .. مشاعري) .

هل تقبل الهدية (بصورة غريزية اندفعت يدها ترد يده والخاتم) اما هو فيرجوها الا ترفضه (انت الوحيدة التي لم تجرحني في حياتي) . هل تقبلالهدية؟ ام ان الماضي الذي قدم اليها كفارس من فرسان خيالها يلح عليها ان تقبل (وقبل ان تتمالك وتقول شيئا .. كان سامي قد ترك العلبة على الطاولة .. ومضى لبخفي دموعه . فأجهشت تبكي) .

الماضي هو الملاذ عند بطلة القصة . ولكنها لن تحتفل بأفراحه فتعتذر عن حضور العرس (منعتها كبرياؤها من ان تعترف لاحد بالسبب الحقيقي الذي حبسها في بيتها لحظات الفرح . وهو انها لا تملك ثمن هدية صغيرة ترسلها الى سامي في يوم عرسه). وبهذه المفاجأة تنهي كوليت خوري قصتها القصيرة . فما الذي ارادت قوله من كل ذلك ؟ اذا ما اتفقنا على ان كوليت صاحبة مزاج رومانسي فان قولنا بان القصة تصوير لعواطف حب ، يعتبر توضيح الوضوح . وان كانت عواطف الحب تلك لا تنتهي بلقاء الرجل المرأة كما يحدث عادة ، فلأن شعور سامي بالارتقاء وضرورة الوصول اليه لا يعني له سوى التقديس والاعجاب ببطلة القصة الكاتبة والشاعرة المعروفة ، وما تقديمه لتلك الهدية الا اعتراف بالجميل يخالطه البرهان على انه ما زال مماثلا لها . ولكن القصة لم تكن تهدف الىمثل هذه الامور بشكل رئيسي، انها بظني وثيقة رومانسية تقدمها الكاتبة للقارىء كاحتجاج على التغييرات الاجتماعية التي حصلت في المجتمع فدفعت بها الى مكانة اقل مما كانت عليه . ولننظر الى تاريخ كتابة

القصة المذيلة به نهاية القصة لنجد انه ١٩٦٩ ؛ واذا ما فكرنا قليلا بالسبب الذي دفع بالكاتبة الى تأجيل نشر القصة الى العام ١٩٧٧ لوجدنا تأييدا قويا لفكرة الوثيقة الاجتماعية التي سجلتها الكاتبة بلغة العواطف المتدفقة .

ان الطرف المعادي لكل ما حدث من تغيرات اجتماعية هو في القصة البطلة نفسها ، فهل استطاعت لغة البطلة ان تكون نقيضا وبديلا يوازن حجم تلك التغيرات الكبيرة في المجتمع ؟

بالبساطة والانسياب الناعم للجمل والكلمات ، صنعت كوليت جوا عاطفيا يدفع بالقارىء الى الاستمتاع بالاحزان والى تقدير المواقف المشعة بعذوبة انثوية فائقة . وبالبراءة في الاحتجاج السافر على النظام الاجتماعي الذي ساد جو القصة ، صنعت كوليت جوا فكريا يدفع بالقارىء الى التساؤل الحذر : ثم ماذا بعد ؟

سميرة بريك في قصة « احزان شجرة الليمون »

كيف تفكر هذه الكاتبة الشابة سميرة بريك ؟

تعالوا نستعرض مداخل قصصها القصيرة التي تشكل كتابها الاول « احزان شجرة الليمون » فنرى كيف تفتتح سميرة قصصها :

ـ شعري مظلم في حلكة الليل .. وافكاري مشرقة بلون السوسن (حديقة مسقوفة) .

ـ لم تكن تطيق ان يصفها احد متغزلا بالثلج (غابة الثلج)

ـ منذ بكت للمرة الاولى حبسوها في غرفة (خيوط العنكبوت)

ـ تتمايل فروع شجرة الليمون مع الريح ثم تدنو من الارض كأنما تكتب فوقها يومياتها (احزان شجرة الليمون)

ـ ايها الباب الذي لم تفتحه يد (جسد من الدماء ... وورد احمر)

ـ تتدفق احاسيسها في داخلها كالشلالات (فراشة ملونة .. وبقايا رجل)

ـ لقد كان انتحارا رائعا يا حبيبي (كوب الشاي المثلج)

ـ المخزن يعج بعشرات الجاكيتات (المخزن)

ـ شمس الظهيرة تلفح وجهها كلهاث قلب عاشق (الام اسند رأسي الى كتفي)

ـ نظر العجوز الى المرآة يفحص للمرة الالف التجاعيد التي تملأ وجهه (فزاعة عصافير)

ـ كل الاشياء تقول اني سأموت فوق صدرك غريبة عنك (موت)

ـ أيها العالم المفجع بضخامتك . المفجع بضآلتك الام ادوم فيك (الحب والخوف)

ـ ما أكبر العالم على أن تكتشف مكنوناته . ما أصغر العالم على ان احتويه بين ضلوعي (المدينة النائمة)

كيف تفكر سميرة بريك ؟

بل من الصواب ألا نقول انها تفكر، لانه من الافضل ان نقول بانها تكتب فحسب . فالكتابة الفنية هي الانفلات من عنق زجاجة التفكير والتصميم ، والكاتبة الشابة قد تحررت في مجموعتها هذه من التصميم المدروس للقصة . لذا فقد دخلت دون أن تدري عالم الابداع . وهي وان كانت ما تزال تقف على بوابة ذلك العالم ، الا انها تشتعل حماسة ومقدرة للتجول في ارجائه في المستقبل القريب .

في قصتها « احزان شجرة الليمون » نموذج لذاك التحرر من قوانين التصميم اولا ، ودلالة على انفعال صادق تجاه الاحداث الصغيرة والكبيرة في آن واحد ثانيا ، لذا فان هذه القصة التي تمثل خط المجموعة بامانة تعتبر من الادب القصصي الحديث الذي يحمل قدرا كبيرا من المعاناة والتجريب .

القصة من مجموعة (احزان شجرة الليمون ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٧٨ ، الصفحة ٣٩ ـ ٤٧) . تمثل انطباعات حادة الزوايا لصبية عن عالم صغير تعيشه فيصبح سورا او انه يرفع جدارا او انه يمتلىء بالحفر التي تصبح حقلا للالغام غير الفعالة في حياة الصبية .

ولفهم الاحداث الغائمة او الواضحة في القصة علينا ان نفتت النسيج القصصي من خلال تحديد الشخوص الرئيسة فيها :

اولا ـ الفتاة الوحيدة التي تختلط روايتها للقصة بشخصية الكاتبة نفسها .

ثانيا ـ شجرة الليمون المزروعة في حديقة الدار.

ثالثا ورابعا ـ ام الفتاة ووالدها .

ورغم ان تفتيت النسيج العام لهذا النوع من القصص قد يسيء اليها ، الا انه ضروري لتقصي الابعاد التشكيلية لجوهر الشخوص والانفعالات ، ولا يمكن للقارىء ان يلملم ذلك النسيج الا من خلال تجميع ابرز الشخصيات من خلال التركيز على الفتاة الوحيدة وشجرة الليمون . وتبقى شخصية الاب والام هما الارضية او الرمز الاجتماعي النفسي المحيط بالابنة الوحيدة حقا .

ان مزيدا من التجريد المتناغم مع اسلوب الكاتبة، يقودنا دون شك الى شجرة ليمون وحيدة او الى فتاة لها احاسيس شجرة الليمون . تفتتح القصة بما يلي

(تتسايل شجرة الليمون مع الريح ثم تدنو من الارض كأنما تكتب فوقها يومياتها . لكن الارض قاسية ، وشجرة الليمون لا تملك الا هذه الاوراق الطرية ، تمرغها بالارض وتنتحب ، لكنها لا تقدر على كتابة كلمة واحدة اذ تحملها الريح الى اعلى) ، فماذا تريد الكاتبة ان تقول من خلال هذه الافتتاحية التي تلخص الموقف العام للفتاة ـ الشجرة ؟ انها تضع المقدمة والنتائج وتصف المناخ العام في آن واحد . فالشجرة هي الفتاة والارض القاسية هي الجو العائلي الذي سنتحدث عنه بعد قليل ، والاوراق الطرية للشجرة التي تتمرغ بالارض وتعجز عن كتابة كلمة واحدة هي قدرات الفتاة نفسها العاجزة عن التعبير عما يعتمل في نفسها من احزان مبهمة . اذن فالاندغام بن الانسان والطبيعة يبتديء منذ اللحظات الاولى للقصة . والشجرة التي سنرى في نهاية القصة انها ستحمل كل احلام وآمال وتطلعات الفتاة ، ستلقى مصيرا عجيبا .

تتساءل الفتاة (يا رب .. لماذا تزوجت امي من ابي ؟) . الاب يذهب الى الحانة فهو سكير ولكنه لا يحب شجرة الليمون . اما الام فهي مزيج من الحنان والضعف والتناقض ، وهي تخاف على ابنتها (انت نحيفة) (وجنتاك شاحبتان ضعي عليهما لمسات من احمر الخدود) (عيناك متعبتان .. يجب الا تسهري ليلا) وهي تدخل مخدعها لتصلي من اجل الاب (يا رب اعده سالما الى بيته .. وليكتف بكأسين) ومن اجل الابنة (يا رب .. ساعد لينا على انهاء عام دراستها الجامعي بخير) وهي كذلك طيبة رغم قسوة الاب (ها هي ذي تركع عند سريره ، وبدلا من ان تصفعه ،تقبله).

نحن اذن تجاه فتاة تحس بالوحدة رغم توفر العناصر العائلية ، لذا فهي تجد في شجرة الليمون العزاء الوحيد ، لماذا ؟ لانها تجد نفسها فيها (وحدها شجرة الليمون تبقى على العهد ، وحدها شجرة الليمون لا تفكر بالانفصال عني ، لا تتمتم بالوداع) فالفتاة رغم التناقض القائم في الاسرة والاضطراب العاطفي القائم ، تخشى الانفصال ، اي انها تخشى الفناء او الموت فلا تجد لها في الحياة صورة سوى الشجرة (شجرة الليمون هي الحقيقة الوحيدة في عالمي الصغير الذي هربت اليه من العالم الذي يضج بالكانفاه والكؤوس ، اما ابي فحين يستعصي الحلم عليه يستنجد بالكأس الثالثة ، والا فبالخامسة) .

حادثتان بالفتا الاهمية لتحويل الانفعالات الفنية المشتتة الى كيان قصصي ، تعطيان القصة بعدا مأساويا. الاولى تكون في البداية (اليوم ، تركت اهلي نائمين، وخرجت الى الحديقة عارية القدمين ، وفي يدي الوان وفرشاة) تم تكون الواقعة (سأرسم فوق الليمونة تفاحة . لكن من سيأكلها سيفاجأ كثيرا بطعم الحمض في فمه ، وعندما يأتي عصفور ليحوم حول الشجرة يخدع) (قسوة الثمرة صدمت منقاره الصغير). تلك المحاولة لتغيير الواقع المحيط بالفتاة او بالاحرى تغيير الفتاة نفسها لن يجدي . ففي الحادثة الثانية تكون الفجيعة (لماذا يريد ابي ان يجتث شجرة الليمون ؟ رغبت في أن أصيح به وهو يهوي بفأسه على جذعها ايها المجرم) وتعلق الفتاة بقولها (ابي رجل . ابي لا يحب شجرة الليمون. ابي متعطش كشجرة الليمون لكنه لا ينشر اريجا كأريجها).

الاب يقف ضد الشجر ، اما الام (امي لا تكف عن تصديع راسي بالاشهر التسعة التي حبستني في جوفها . ثم تسألني لماذا انا مجنونة بشجرة الليمون). وتقول الفتاة في الكلمات الاخيرة (شجرة الليمون تحمل ثمارها دون ان تبدو تعيسة بحملها) .

هل يمكن اعتبار هذه القصة وثيقة نفسية كتبتها فتاة ضد الاسرة القائمة . ام هل يمكن لنا اعتبار هذه الانفعالات موقفا معاكسا لكل الفرضيات النفسية القائلة بتعلق الابنة بابيها (عقدة الكترا) وبانسلاخها عن امها ؟ هل يمكن لنا ان نعامل القصة على انها وثيقة احتجاج وجودية من فتاة العصر ضد القوى التي لا تؤمن لها الرواء العاطفي الكامل ؟

الفتاة محرومة من حنان رجل ، وهي تقول (اغمضت عيني وحاولت ان ارسم صورة لرجل . بدأت بالقدمين، لان اقدام الرجال متشابهة ، ولاني لا اعرف جيدا رجلا بعينه) (لكني رسمت جذور شجرة) . الفتاة اذن تمثل حرمان الانسان المعاصر من الالفة والتآلف ، فلا تجد سوى الطبيعة ممثلة في الشجرة تلجأ اليها لتدخل فيها . ورغم ان انتاج الكاتبة لا يحمل آثارا فلسفية او تطلعات صوفية ، الا انها عبرت عن وحدة الوجود والاندغام القائم بين الانسان والطبيعة بصورة فنية واجواء صادقة .

هذه القصة المرهفة رغم اهتمامها بخلق الاجواء التي هي قوام القصة الحديثة ، تخلف في الروح آثارا قد لا تحمل قدرا من التحريض او الانخراط في الشعور الجماعي العام ، الا انها تبقى اشارة على انعتاق الفرد من القيود السائدة ، مما قد يحقق حرية داخلية ذاتية قد تصبح في المستقبل تحقيقا للحرية الجماعية ،وهذا هو هدف من اهداف الفن الادبي ؟

دمشق